« الأرض »

قصة بقلم فائز محمود

— ١ —

على الحدود الغربية كان البحر هادرا مرعبا يقذف باملاحه التي يجف عنها زبده فيسمم الشط . وعلى الحدود الشرقية كان النهر العذب يجري من اقصى الشمال حتى الجنوب، فيفيض بالخيروالحياة. كان البحر الميت مخلفات اثرية لعصور خلت من دهور . وكان النهر باستمرار ولازمان طويلة يغسله وهو يصب به . ظل لدهور طويلة يغمره عسى تدب فيه الحياة ، يحلو وتزول منه الغصة ، تذوب الاملاح . من يدري فعسى يتم ذلك .. كان النهر يجري ، والتاريخ ايضا يسري.

ينبع هذا النهر الخالد من ماض عريق ، ويجري الان في خضم المستقبل .. هناك من بعد الشط يزمجر البحر الغاضب ، ينف ملحه: ليظل يتلاطم فليس له في الارض رعب . وليحجر على البحر الميت ، فقد لفظه التاريخ من مجراه الدائم ... يقولون ان هناك بعيدا بعيدا في اقصى الشرق عالما يخرج الماء الحلو من الارض .. لكن ارضنا مملوءة بالينابيع الطبيعية . والسماء في كل عام تمطرنا رحمة،وتسقي الارض الطيبة .

النهر يدفق بحنان وبهدوء . البحر مقهور ينطح رأسه علىصخور الشط ، عند الحدود الغربية ، والبحر الميت خانع ، واولئك الذين يحيون بعيدا ، كما نسمع ، في اقصى الشرق ، يصارعون باستمرار عالمهم الفقير فينبشون اعماقه عن حاجاتهم . عالمهم قاس وباستمرار هم في حرب .. ايه يا ارضي ، اي فردوس انت ..

— ٢ —

البحر يطوف .. ويلي من هذا البحر الوحشي . يرغي ، يزبد ، يعلو ويتعالى ، ثم يهدر نحو الارض .. تغرق ارضي .. عبر الشاطىء الممتد بمحاذاة البحر دفق الطوفان . الملح المميت ، السم ، يغشى التربة ، يتخللها ، تنقلع المزروعات .. والغرق يستفحل ، يفترس آماد الارض الوادعة .. يا ايها البحر الغربي : ما افظع شرك ، يا هذا الاهوج . ليست هذي الارض قاعا حتى تملاها . ليست فراغا ... ويظل البحر يكتسح التربة ، يتقدم .. يتقدم .. يتقدم باثا رعبه ، مدمرا ، مهلكا . ثم . ثم يفقد قوة الاستمرار . عبثا يكد ليظل عنيفا . عبثا يقوى ليظل في عنفوان تبجحه . وها هو يستسلم . ها هو ينكمش ، يتراجع . ينسحب بذل . يعود الى هوته العميقة الواسعة التي تجشأته في لحظات سكر فقد فيها الرشد . هناك قدرك التاريخي ايها البحر العدمي ، فلم تغيظك حلاوة ينابيعه .. جزر الشر . وشيئا فشيئا بدت الارض الدامعة يعود لها الاشراق والبسمة . ذرى الجبال كانت اول ما برز . ثم الهضاب . ثم المرتفعات . كل سام كان سابقا سنين طويلة ، اسنت فيها مخلفات الطوفان الذي كان سيصلب الحرية على ما اقل منه سموا ، في التحرر .. وظلت هناك بعض الوديان ، .. ظلت اشعة الشمس تبخر هذا الغريب ، والمطر يغسله من جديد ، وهكذا مع تتالي الاعوام انتهى .. وبرزت الينابيع اصفى حلاوة ، والنهر المقدس اكثر طهرا ، لكن البحر الميت وحده ازداد قليلا حجمه وزدادت ترسباته ..

— ٣ —

يوما زعم البحر الميت أن هذي الارض هي قاعه ، وانه الان مقلوب . انه في عصر غامر غضبت السماء على هذا البحر ، وكان حينذاك حيا ، فسحقته . دفنته في اعماق الارض وحبست مياهه.. واستنكرت الارض هذه الدعوة الشريرة .. ومضى النهر الخالد يغسل خبث البحر السام فعساه يبرأ .

وفجاة وسط السلام الوادع والسكون يهيمن على افاق الارض الساطعة بالنور ، انفجر البحر الميت . انقذفت حممه البركانية فاشتعلت النيران بالارض . واندلق الماء الحار ، الشديد الملوحة ، من الهوة الى الاعالي . وفاض البحر من الغرب ، فازداد الغرق . كان يوما لن ينساه التاريخ حيث احتجبت انوار الشمس وعم الظلام الارض والسماء من نيران البركان .. وحينما همد الغضب الشرير كانت معظم الارض قد احترقت .. لقد امطرت السماء طويلا.امطرت. امطرت . وامطرت . لكن ... لقد نضبت الينابيع في الارض المحترقة، ودمر البحر العاصف ايضا السواحل ، وباقي الارض التي انقذت بقيت باستمرار مهددة بالقحط بالاضافة الى خشيتها من ذاك البحر الغربي الاسطوري القوة ، وهذا البحر الميت الذي دبت فيه الحياة من جديد ، ويود ان يقتات بحياتها .

— ٤ —

في تلك البقعة السالمة من الارض التي هلكت ، كانت الحياة تكابد باستمرار صعوبة البقاء .. وعلى تلك المشارف الشاسعة من الافاق

حيث كانت تمتد هي قبل أن يفقأ دمل البحر الميت افرازاته التاريخية العفنة فيلوث ما اكتسحه ، كان الموات يتلاطم في القيعان التي ابتلعت ربوة الحاضر ، واغتالت نمو الزمن المتعالي .

يئست باقي الارض من الينابيع التي غاضت ان تتفجر ثانية ، وكفرت بالسماء ان تمطر .. واستشرى القحط .. وتمر الاعوام والارض تجف اكثر واكثر ، فاستغاثت تطلب الماء .. وهرول البحر ليقدم لها ماءه المصفى . انشأ لها ضمن مناطق نفوذه ، المصافي التي تنبع من مائه المالح ، لكنه يقطرها عند الارض حلوة نقطة نقطة .. لكن الماء المالح كان يهدر يود ان يدفق فيغرق باقي هذي الارض عبر تلك الجسور التي تصله بسلام اليها . كانت المصافي ترد تلك الحرب الكامنة ، وتمتص منها تلك القطرات العذبة ، خمرة تسكر شاربها ريثما يحين الاوان المناسب لنية الحرب لتتحقق بالفعل .. ولقد لبى ايضا ذاك العالم البعيد ، الذي في اقصى الشرق ، ذاك العالم الذي يصنع سماءه بنفسه ويجعلها تمطر ، ويحضر ينابيعه بنفسه ويجعلها تدفق ، لبى النداء ، فتعالت اباره الارتوازية تملأ الامكنة هنا وهناك وهناك ، وعبت الارض العطشى تنهل وقد كادت تقضي ..

ـ ٥ ـ

كان حر حزيران اللاهب ، كانفاس الشيطان ، يصعد بخار البحر الميت الى اعلى . وكان البحر يزفر غيظا .. وبضع قطرات ماء حلوة ادخرت من مصافي بحر الغرب ، وبضع كميات من مياه الابار الشرقية ، هو ما تقتنيه هذي الارض المجروحة .. ماذا ينفع ذلك وبوار ملح البحر الميت العقيم ، يغرق الامل ببعث الحياة من جديد ، وهو يفور.والبحر الغربي يدفق عبر انابيب مصافيه البخيلة الى مكب الارض ، لكن بكرم حيث تهدر امواجه الان بالشر .. وتبدد امواه الابار منجرفة ، ثم تتلاشى .. ورويدا رويدا يبتلع البحر الغربي ، البحر الميت.وتغوص الارض ، ويذوب البحر الميت ، وتمتد شواطىء البحر الغربي حتى حفاف الارض الشرقية العالية حيث كان النهر المقدس سابقا يحدها من هذا الجانب ..

ـ ٦ ـ

لم تعد الشمس تشرق على تلك الارض التي يغمرها ظلام البحر العميق .. ولقد كانت الملوحة الزائدة تقل مع مرور الايام ، حتى جاء وقت نبتت فيه بعض الاعشاب .. ومع الزمن كان سطح هذه الارض يتشقق ويتفتت ترابه . كان يذوب ، يود البحر ان يميعه ، ان يعدمه حتى قاع القاع .. ولكن الارض الصلبة تصمد .. انها لقمة غير مستساغة بسهولة في جوف البحر الغربي العملاق . وهو لا يود ان يلفظها فيستريح . يقتله الطمع .. وهي باستمرار صلبة ، صلبة ، صلبة ، مهما ذابت فالاعماق كبيرة ، حتى القشرة السطحية التي تذوب، حتى ترابها هذا ، كان يظل يسري بين طيات الموج حتى الشط حيث حدود ذاك العالم النائي الذي غدت ارضه تتلاقى بهذا البحر عند حدودها الغربية . هناك كان التراب المتفتت يلتصق بالارض الشرقية .. ستظل بعد الان تلك الارض المغمورة تمتص ماء البحر ، تمتصه حتى يفقر . وستظل تلك الارض الكبيرة تحاصره باستمرار حتى لا يطغى اكثر ، وستبقى تجفف شواطئه حتى يتراجع .. انها المعركة الخالدة الابدية بين الارض والبحر .

عمان ـ الاردن

فايز محمود

دار العودة ـ بيروت

بناية بنك بيروت والبلاد العربية ـ شارع مار منصور
الخندق الغميق

تطل على القراء العرب

بباكورة منشوراتها

١ ـ حياتي في الشعر
تأليف صلاح عبد الصبور

٢ ـ الاندلس المفقود
تأليف الرئيس محمد أحمد محجوب

٣ ـ الشعر القومي في السودان
تأليف الدكتور عز الدين اسماعيل

٤ ـ الغاضبون في الادب والفن
تأليف الاستاذ رجاء النقاش

٥ ـ الفدائيون الفلسطينيون
تأليف الاستاذ طلال سلمان

٦ ـ الفدائي والوحش
شعر لآمال الزهاوي

٧ ـ الطلاب : ثورة وتمرد
تأليف نجيب صالح

تصدر تباعا